من أشبيليه إلى جائزة نوبل

فى أواخر ١٩٧٧ فاز بجائزة نوبل للأدب رجل إسبانى طويل القامة ، نحيل ، ذو رأس أصلع أشبه برءوس التماثيل الدينية القديمة ، عمره يقترب من الثمانين هو الشاعر بيثنته ألكساندرى .

ولكن الدوائر الأدبية والإعلامية العالمية لم تعلق كثيراً – كما هى العادة – على فوز ألكساندرى بالجائزة المشهورة ، ومع ذلك ، ومع أن ألكساندرى ليس من الشعراء الإسبان الذين طبقت شهرتهم الآفاق كما يقولون مثل مواطنه لوركا أو غيره ، فمن المحقق أن فوزه هذا يثير أكثر من سؤال :

. . هل الشعر الإسبانى قد بلغ من النضج والعظمة ما أهله للفوز بجائزة نوبل مرتين ؟ . . فألكساندرى ليس أول شاعر إسبانى يفوز بها ، فقد سبقه « بلدياته » وابن جيله رامون خيمينيث عام ١٩٥٦ ، بل سبقهما معاً إسبانيان آخران معروفان فى التأليف المسرحى هما : خوسيه دى إيشيجاراى عام ١٩٠٤ وخاسينتوبيافينتى عام ١٩٢٢ . ومعنى هذا أن أدباء إسبانيافازوا بجائزة نوبل أربع مرات حتى اليوم .

هل رضيت اللجنة المشرفة عن جائزة نوبل على ألكساندرى أخيراً ؟ فهو قد رشح أربع مرات من قبل للفوز بهذه الجائزة ، كان فى آخرها على وشك الفوز بها بالاشتراك مع زميله لويز بورخيس ، إلا أن سوء طالعه حجب عنه الجائزة عندما تطوع بورخيس ، فصرح ببعض التصريحات حول الفاشية لم تعجب اللجنة . وكان أن حجبت الجائزة عنهما ! وربما كان ذلك نوعاً من حسن الحظ لا سوء الطالع فها هو ذا ألكساندرى ينفرد بالجائزة وحده دون شريك . ومعنى ذلك بالطبع أن لجنة نوبل للأدب ليست منزهة عن الهوى . وتاريخها يؤكد ذلك ، ولكن البحث فى هذا الموضوع الفرعى يخرج بنا عن الموضوع الأساسى وهو فوز بثينته ، وقيمته الشعرية داخل إطار الشعر الإسبانى نفسه . ولا شك أن الإجابة عن السؤال الآخر الذى طرحناه قد وضحت الآن : فاللجنة قد رضيت أخيراً عن بيثنته ، أما السؤال الأول الذى طرحناه فى مطلع هذا المقال فهو الأساس هنا . وهو الذى يستحق وقفة طويلة للإجابة عنه ، ولنعد إلى الشعر الإسبانى فى هذا القرن لعلنا بذلك نلقى ضوءاً على رواده وفرسانه .

بعدعام ١٨٩٨ تحطمت العظمة القومية الإسبانية فى حربها مع الولايات المتحدة ، ولكن هذه الهزيمة نفسها هى التى حركت مشاعر العزة الكامنة فى الإسبان ، وبدأت اليقظة تحرك قلوب

المثقفين ، وعقولهم ، ومن ثم ظهرت روح جديدة فى التعليم والفنون ما لبثت أن صبغت الأدب شعوراً من الجميع بضرورة عودة مجد فشتالة والأندلس ، وكان أن ظهر جيل جديد من الأدباء أطلق عليه اسم «جيل ٩٨» ضم كثيرين من الشعراء والأدباء الذين تفتحت مواهبهم مع الشعور باليقظة ، وراحوا يستلهمون روح البعث والحداثة التى سبق أن أيقظتها فرنسا . وأحدث ذلك كله ولادة جديدة فى الشعر ، وظهرت أسماء : ما خادو ، خيمينيث ، أونامونو ، وغيرهم ممن أطلق عليهم أيضاً اسم «جيل الحداثة» وكلها أسماء مضللة فى النهاية ، فما يجمع هؤلاء هو تنوع المصادر التى استمدوا منها تجاربهم ورؤاهم سواء من الشرق أو من الغرب : فقد ترجم خيمينيث مثلاً شعر تاجور الهندى ، وترجم ما خادو إميلى ديكنسون الأمريكية ، واتجه أونامونو إلى كيركجارد الوجودى وإمرسون الأمريكى ، وكان خيمينيث هو أظهر شعراء ذلك الجيل قبل الحرب الأولى . وبعد الحرب الأولى غرق الشعر الإسبانى فى طوفان من المذاهب الوافدة من مستقبلية وتكعيبية وماركسية وسيريالية ودادائية ؛ كما هبت عليه رياح الفولكلور الإسبانى وأغانى شاعر الإسبان القومى جونجورا . وكانت السيريالية هى فارس الميدان فى ذلك الوقت ، فقد أثرت فى جميع الشعراء بما فيهم ألكساندرى الذى حاول تطويعها لأغراضه الشعرية ، وبينما استخدم شاعر مثل لوركا السيريالية كأداة لاصطياد الصور الوحشية للغضب واليأس والضحك المبكى – استخدمها ألكسندرى أداة لنقل التساؤل والعجز اللذين أحس بهما عند الإنسان فى صراعه الفردى مع الكون .

أما جونجورا فقد أثر فى هؤلاء الشعراء بدوره تأثيراً آخر ، فقد كان هو ولوبى دى فيجا مفتونين بأغانى الغجر والصيادين . . وفى عام ١٩٢٧ حلت ذكرى مرور ٣٠٠ سنة على وفاة جونجورا ، وفى ذلك الوقت أصدر الشاعر داماصو ألونسو دراسة عنه نبهت الأذهان إليه ، فأعاد الشعراء اكتشافه حتى أطلق على ذلك الجيل مرة أخرى اسم «جيل ٢٧» نسبة إلى العام الذى أعادوا فيه اكتشاف جونجورا ، وكان يمائل بيرم التونسى عندنا . وقد وجد فيه جيلين وساليناس ولوركا وألبرتى نموذجاً يحتذى برموزه وصوره الجديدة وبساطته فى التعبير وغنائيته الشديدة ، بل وحسيته الظاهرة فى تكوين الصورة الشعرية على الرغم من أنه لم يكن رومانتيكيًّا ولا عاطفيًّا مسرفاً ، وفى الوقت نفسه أعاد بعض الشعراء فى ذلك الجيل ، وبخاصة لوركا اكتشاف الشعر العربى الأندلسى ، فاستفادوا من أشكاله الغنائية ولا سيما القصيدة القصيرة والموشح .

وكان للسياسة أثر آخر فى هؤلاء الشعراء ، فتحول معظم السيرياليين إلى الماركسية ، وعقد بعضهم زواجاً غريباً بين الاثنتين ، ووظفوا الشعر توظيفاً اجتماعيًّا ، فما عدا بيثته الذى انسحب

من الميدان مفضلاً الشعر للشعر.

وكانت أحداث الحرب الأهلية الإسبانية دافعاً آخر من دوافع اغتناء الشعر وتعدد منابعه، ولكن ما إن انتهت هذه الحرب عام ١٩٣٩ حتى تشتت أفراد الجيل السابق: إما بالموت والقتل مثل هرناندد يزولوركا وأونامونو وماخادو، وإما بالنفي مثل خيمينيث وساليناس وألبرتي. وفي الوقت نفسه غادر شعراء أمريكا اللاتينية نيرودا وباز وأندرادى وفاليخو إسبانيا عائدين إلى أوطانهم بعد أن ألهبوا خيال زملائهم.

أما ألكساندرى وديبجو وداماصو ألونسو فقد بقوا في إسبانيا يكتبون الشعر في صمت وسكون ويطبعونه في المجلات أو الدواوين. وانقسم الشعراء بعد ذلك إلى شعراء اجتماعيين وشعراء ذاتيين، وتزعم ألكساندرى فريق الشعراء الذاتيين إلى اليوم.

ولد ألكساندرى في ٢٦ من أبريل عام ١٨٩٨ بمدينة إشبيليه، وأكمل دراسته الثانوية في ملقة ودراسته الجامعية القانونية في مدريد، وقد بدأ في كتابة الشعر في سن مبكرة، ولكن صحته العليلة لم تساعده على الانتظام في الكتابة أو في العمل، فقد ترك وظيفته في السكك الحديدية وانتقل إلى الريف، وفي عام ١٩٣٥ فاز ديوانه «خراب الحب» بالجائزة القومية للشعر، وفي عام ١٩٤٩ انتخب عضواً في الأكاديمية الإسبانية برغم روحه التجديدية وطابع الحلم – لا الواقع – الذى يسيطر على شعره الذى بلغ أكثر من عشرة دواوين فضلاً عن تأملاته ودراساته التي تناهز العشرين كتاباً.

وشعر ألكساندرى صعب، تأثر تأثراً كبيراً بشاعر شيلي المعروف بابلونيرودا، وحاول فيه إحياء الرومانتيكية المخلوطة بالسيريالية اللتين يعطرهما عبق من الصوفية والرؤية القائمة على الحلم.

قيل في أسباب منحه جائزة نوبل: إن شعره «نابع من صميم التقاليد الشعرية الغنائية الإسبانية التي تتمشى مع التيارات الحديثة، وتضيء طريق الإنسان وتعزز مكانته على هذه الأرض وبين الكواكب «وقال هو نفسه في قصيدة بعنوان» «لمن أكتب»: إنه يكتب «لمن لا يقرءون لي.. هذه السيدة التي تجرى في الشارع كما لو كانت تريد أن تفتح الأبواب أمام الفجر، أو هذا الكهل الذى ينام على مقعد في هذا الميدان الصغير وشمس الأصيل تحنو عليه وترقرق عليه أشعتها الذهبية».

وقال الشاعر داماصو ألونسو ابن جيله ورئيس الأكاديمية الإسبانية فور فوزه بالجائزة: «لقد كرس ألكساندرى كل حياته للشعر على نحو عاطفي مركز. ومع مرور الزمن أخذ في تطوير نفسه مع حرصه الدائم على الإخلاص لأعماق طبيعته الشعرية. وحصوله على جائزة نوبل يعتبر مفخرة لنا

جميعاً نحن معشر الإسبان» .

وقال جيراردو ديبجو أحد أعلام جيله : «لقد سرنى جداً حصول ألكساندرى على جائزة نوبل ، لقد منحت لمن أقدّر شعره وأعجب به . وكنت أفضل أن يمنحوها له منذ ١٥ أو ٢٠ سنة ، ولكن هؤلاء السويديين لهم سياستهم» .

على أية حال . . لقد اخترت له هنا بضع قصائد أرجو أن تساهم فى الإجابة عن سؤالنا الأول الذى طرحناه فى مطلع هذا السياق .

* * *

الغابة والبحر :

هناك بين الأضواء النائية
أو السيوف التى لم تستخدم بعد
تجد النور فى ضخامة الكراهية
والأسود فى فظاظة القلوب
والدم مثل حزن قد سكن
هناك يقاتل الضبع الأصغر وعليه إهاب الغروب النهم .

* * *

هو ذا البياض المفاجئ
والتجاويف البنفسجية تحت العيون الخابية
تظهر عندما تكشر الوحوش المفترسة عن سكاكينها أو أنيابها
مثل خفقات قلب يجهل كل شىء عدا الحب
وعلى هاتيك الرقاب تنفر العروق
فلا تستطيع التيقن
من أن الذى يومض على الأنياب البيضاء
هو الحب أم هو الكراهية .

* * *

إذا ربت على العرف العبوس
والمخلب القوى يخترق أديم الأرض ،

وجذور الأشجار ترتعش
تحس بالمخالب النافذة
مثل حب هذه عادته فى الغزو

* * *

إذا حدقت فى هاتيك العيون التى لا تتقد إلا بالليل
حيث الغزال الصغير – وقد مضى على التهامه زمن طويل –
مازال يعكس رسمه المصغر فيتلألأ فى الليل مثل الذهب
تجد رحيلاً يخفق بضعف لم يظهر قبل الرحيل .
النمر والأسد المفترس ، والفيل الذى يحلى أنيابه بقلادة ناعمة
والأفعى التى تشبه أحر أنواع الحب ،
والنسر الذى يقبل أدمغة الصخرة الصلدة ،
والعقرب الصغيرة التى لا ترجو إلا احتضان الحياة
بكماشتيها للحظة واحدة ،
والحضور الجبان لجسم رجل لا يمكن أبدا أن يحسب على غابة ،
تلكم الأرض المحظوظة التى تقيم عليها الأفاعى الصغيرة الحصيفة
أعشاشها وتغطيها بالطحالب
على حين تتسلل الخنفساء القرمزية الملساء
من ورقة زهر حريرية . . .
إن كل شىء يخفق ويهتز
مثل جناحين من الذهب
حين يعلو صوت عذراء الغابة الخالدة ،
ومرابط الأجنحة ، برونزية أو موشّاة ،
أمام بحرٍ لن يخلط أبداً
بين زبده والطلقات الواهنة الصغيرة

* * *

إن الانتظار الهادىء .
ذلك الأمل فى الخضرة الدائمة .

والطير والجنة وبهاء ريشات لم تمس ،
يخلق أطول عناقيد على الغصن
حيث المخالب من الموسيقى
حيث المخالب القوية ، وقد غمرها الحب
والدم الحارّ الذى ينبجس من الجرح
لن يصل ، ناهيك عن المدى الذى
تستطيع النفاثات الوصول إليه ،
ولاهاتيك الصدور التى تسعى على الأرض نصف مفتوحة
تمد ألمها أو نهمها نحو السماوات الزرق

* * *

إن طير السعادة
الطير الأزرق أو الريش الأزرق
فوق طنين الوحوش (الوحيدة) الذى يصم الآذان
طنين الحب أو طنين العقاب ضد الجذوع العقيمة ،
أمام البحر ، وقد بعدت الشقة ،
ذلك الطير يتراجع مثل الضوء .

الحياة :

فى صدرى طائر من ورق
يقول لى : إن وقت القبلات لم يحن .
الحياة ، الحياة . . لا أحد يرى الشمس تتهشم ،
ولا القبلات ولا الطيور
التى تأتى فى موعدها أو تأتى متأخرة أو لا تأتى على الإطلاق .
إن أدنى ضجة كفيلة بأن تقضى على ،
ضجة قلب آخر يصمت ،
أو تقضى على ذلك الارتطام – البعيد عن متناولنا – بهذه الأرض

حين يتمثل سفينة من ذهب
يبحر بها الشعر الأشقر !
إن رأسى مصدع ، والمعابد من ذهب ،
والشمس عارية ،
وأنا فى هذه الظلمة لا أنفك أحلم ،
أحلم بنهر ،
بمزامير حية يجرى فيها الدم الأخضر
أحلم بأنى أتكىء عليك ،
وأنت دافئة تنبض فى عروقك الحياة .

زقزق يا طيور :

أيتها الطيور ،
إن خفقات أجنحتك الطليقة
لا تمحو ذاكرتى الحزينة
يالها من عاطفة تنطق بها
تلك السقسقة الصادرة
من صدورك الطاهرة !
زقزق من أجلى ، أيتها الطيور الوامضة
يا من تنادين على الفرحة
فى الغابات المحترقة
ويسكرها الضوء
فتفيق مثل ألسنة الجرس
فى الزقزقة التى تتبناك بشجاعة
زقزق من أجلى ،
أيتها الطيور التى تولد كل يوم
وتعلن براءة العالم فى صياحها
زقزق ، زقزق ، وافرحى من قلبك

حتى تنزعينى من جذورى ،
ولا تعيدينى إلى الأرض .

الشعر الأسود :

لماذا أحدق فيك ، ياذا العينين السوداوين ؟
أيها المخمل الحى الذى أجرح فيه حياتى ،
أيها الشعر الأسود ، يا من يواجهنى بالأسى
حيث أدفن فمى ،
يا من يواجهنى باضطرام الموج
حيث تغرق قبلاتى ،
يا من يواجهنى بشاطئ متناه
حيث يتبدد فى النهاية صوتى
وينقع جوهرك الملكى ،
يأيها الشعر الوسائد
ياسلاسل القوة !
على مشارفك تتكسر رغباتى المفعمة
كأنما تتكسر على شاطئ مظلم .
وأنت إذ تفيض ،
إنما توجد ، وتبقى وتحكم !
النصر نصرك ،
كأنك صخرة شاهقة فى البحار !

إلى فتاة عارية :

يالوداعتها إذ تنظر إلى – أنت ،
أيتها الفتاة ذات العينين السوداوين !
من على ضفة ذلك النهر الجياش بالموج وسطه .
أستطيع أن أبصر ملامحك واضحة فوق نغم من الخضرة .

ليس العرى هو ما يلفح العشب مثل اللهب .
أو مثل الجذوة المجفلة المتداعية المنذرة بالرماد .
وإنما هو أنت يا من من تقبعين فى سكون . يا أنضر زهرات
الربيع الصباحية ، تتنفسين فتبلغين الكمال
أيتها الصورة الناضرة لزهرة الربيع الصباحية المتضوعة برقة .
جسدك – فراشه المرج البكر المنعزل
تتمدد حوافه مثل نهر ينساب فى هدوء
هأنتذا مستلقية ، وعريك الحبيب يشدو
شدوه أنست به نسمات الوادى واستعذبته .
أواه ! يا فتاة النغم ، يا منحة فتانة ،
والمنحة لا تجد من يتلقاها ، هناك على ذلك الشاطئ القصى !
تتدخل الأمواج الوحشية ، فتفصلنى عنك ،
يامنيتى الأبدية العذبة ، أيها الجسد ، يا قيد السعادة ،
يا من تستقلين على ذلك العشب مثل نجمة سماوية .

مصير الجسد :

كلا ، ليس ذلك ما أعنيه .
لست أنظر إلى جثة على الجانب الآخر من الأفق
عيناى ليستا مثبتتين على عينين هادئتين قويتين
تهدهدان المياه الوحشية التى تخور هنا .
إنى لست أنظر إلى شلال النور المتحرك
من فم إلى صدر ، إلى يدين بضتين متناهيتين
تغرقان هذا العالم وتزنانه مثل الذهب .

* * *

إنى أرى الأجساد فى كل مكان – عارية ، صادقة مع سأم العالم
إن الجسد يموت ، يولد – ربما ليكون ومضة ضوء
كى يحترق مع الحب ويذروه الهواء بغير ذاكرة ،

حتى يغدو هالة ضوء جميلة .
هذا الجسد هنا ، الذى هنا ، الذى يذوى من الخلود ،
مستمراً ثابتاً على الدوام ، مرهقاً على الدوام .

* * *

لا جدوى لريح بعيدة نباتية الشكل ، ولا للسان
أن يعلق حدوده ببطء ولفترة طويلة ، أن يجعل له حدًّا ،
أن يصقله ، وأن يهتم به .
إن أجساد البشر صخور متعبة ، وأجسام رمادية
تدرك دائماً ، عند حافة البحر أن الحياة لا تنتهى ،
كلا ، لا تنتهى بتوريث نفسها .
الأجساد التى تتكرر فى الغد ، الأجساد غير المتناهية ،
تندفع دوماً مثل رغوة بطيئة تعرف كل شىء الآن .
إن جسد الإنسان دوماً بلا ضوء . دوماً يدفع من الخارج ،
من محيط بلا أصل يرسل الأمواج والزبد ،
الأجساد المتعبة ، جدران بحر لا ينتهى أبداً ،
يلهث على شطآنه ، بغير كلل .
إنك تتكاثر وتتكرر وتستمر ، ثم تحرك جسدك ، وحياتك ،
بغير أمل ، وعلى نحو رتيب ، تحت سماوات بليدة
تتعاقب بغير اكتراث .
وعلى بحر الأجساد ذاك الذى ينسكب بغير انقطاع
تتكسر تماماً ،
وتتعرض للموت مرة أخرى على الشواطئ .
لا أحد يرى مطلقاً ، كلا ، لا أحد يرى القارب الصغير المنفلت ،
القارب الشراعى ، وهو يشق طريقه شقًّا طوليًّا .
ثم يندفع بقوة .
ويشق دم النور بقلم من الصلب ، ويفر فى ومضة
نحو الأفق العميق ،

نحو البداية الأخيرة للحياة ، والحد الأبدى للمحيط ،
اللذين ينثران الأجساد البشرية الرمادية .
نحو النور ،
نحو سلم الأنوار المتسلقة
التى ترتقى من صدر إلى فم ،
نحو عيون هائلة ، عيون بأكملها مثبتة على شىء ما ،
نحو أيد صامتة ، أيد متناهية تتصيد ،
هناك حيث مازلنا نولد ونولد
ونحن أبداً متعبون
ولكنا بالحياة حافلون .

السماء تمطر :

هذا المساء تمطر السماء ، فتمطر صورتك التى فى خيالى
وتنفتح فى ذاكرتى حجب اليوم . وتدخلين على قدميك .
لا أستطيع أن أسمع شيئاً . فذاكرتى لا تقدم لى إلا صورتك .
وليس يتساقط سوى قبلتك أو المطر
صوتك يمطر ، وقبلتك الحزينة تمطر ، قبلتك العنيفة
القبلة المنقوعة فى المطر . إن شفتى مبللتان .
مبللتان بذكرياتهما ، وتنخرط القبلة فى البكاء بسبب سماء رمادية رقيقة .
المطر يتساقط من حبك ، فيبلل ذاكرتى ،
ويستمر فى التساقط . أما القبلة فتوغل فى السقوط
ويستمر المطر الرمادى فى التساقط .

الفالس :

أنت جميلة مثل حصاة ،
يا امراتى الميتة !
يا امرأتى الحية ، أنت سعيدة مثل سفينة !

إن هذه الأوركسترا التى تحرك
همومى مثل طبش
مثل طرفة أنيقة فى ثرثرة عصرية ،
إنها لا تدرى شيئاً عن سفح الرابية السرية ،
لا تدرى شيئاً عن الضحكة التى تند عن عظمة الصدر مثل هراوة ضخمة .
بضعة أمواج من النخالة
شىء من نشارة الخشب فى العيون
أو ربما على المعابد .
أو ربما تزين شعر المرأة .
« جونلات » تجرجر على الأرض مصنوعة من ذيول التماسيح ،
بعض ألسنة أو بسمات مصنوعة من محار سرطانات البحر .
كل هاتيك الأشياء التى شوهدت كثيراً
لا يمكن أن تأخذ أحداً على غرة .
إن السيدات ينتظرن دورهن جالسات على دمعة ،
وهن يخفين كآبتهن بمروحة مشاكسة ،
والسادة ، وقد هجرتهم مؤخرات النساء ،
يحاولون جذب جميع الأنظار إلى شواربهم .
ولكن الفالس يدور ،
إنه شاطئ بلا موج ،
إنه قعقعة محارات بحرية ، وكعوب ، وزبد ، وأسنان صناعية .
إنه وصول الأشياء المائجة المضطربة .
صدور جذلى على صينية الأذرع الدوارة ،
كعك شهى يساقط على الأكتاف النائحة ،
وهن يحط على المرء مرة أخرى ،
قبلة تؤخذ مفاجأة لحظة أن تتحول إلى حلوى غزل البنات ،
كلمة « نعم » عذبة من الزجاج المصبوغ باللون الأخضر .
سكر ناعم مرشوش على الجباه

يكسب الكلمات المنمقة بياضاً بسيطاً
وتقصر الأيدى وتزداد استدارتها أكثر من ذى قبل
وتكرمش الفساتين كأنها أعشاب الحلفاء الحلوة .
الرءوس سحابات والموسيقى قطعة مطاط طويلة .
والذيول المصنوعة من الرصاص تكاد تحلق ، والضجة
قد تحولت إلى أمواج من الدم داخل القلب ،
وإلى شراب أبيض له مذاق الذكريات أو المواعيد الغرامية .
إلى اللقاء ، إلى اللقاء يازمردتى ، يا أرجوانتى ، يا سرى ،
إلى اللقاء ، لقد حانت اللحظة الفورية وحلت مثل كرة هائلة ،
اللحظة الدقيقة للعرى تطأطئ رأسها
حين يشرع الشعر الناعم فى اختراق الشفاه الفاحشة التى تدرى .
إنها اللحظة الفورية ، لحظة نطق الكلمة التى تنفجر
اللحظة التى تتحول فيها الفساتين إلى طيور ،
والنوافذ إلى صيحات ،
والأضواء إلى صيحة «النجدة ! » ،
أما القبلة التى كانت هناك (فى الزاوية) بين فمّين
فسوف تتحول إلى شوكة سمك
توزع الموت قائلة :
أحبك .

العجوز والشمس :

لقد عاش زماناً طويلاً
هناك كان العجوز يتكئ على جذع شجرة ،
على جذع شجرة ضخمة ، ظل هكذا عدة آصال وقت الغروب .
ومررت هناك فى تلك الساعة وتوقفت لأرقبه .
كان عجوزاً ، مغضن الوجه ، عيناه خابيتان حزينتان بغير تعبير .
كان يتكىء على الجذع وجاءته الشمس أولاً فراحت تقضم قدميه فى رقة ،

ولبثت هكذا بضع لحظات كأنما قد جثمت عليه .
ثم صعدت ومضت تغمره ، وتكتسحه ، كأنما هى تجذبه برقة ،
وتمزجه بضوئها الشفيق .
أواه أيها الحى العجوز ، أيها المتحمل العجوز ! كم تلاشت !
كل الذكاء ، وتاريخ الحزن ، والتغضنات التى بقيت ،
وهزال البشرة المتآكلة ،
كم بليت ببطء ، وولت !
مثل صخرة تكسر عليها السيل الجارف شيئاً فشيئاً ،
فاستسلمت لحب رعدىٍّ ،
كان العجوز فى السكون ينمحى ببطء ، ويستسلم ببطء .
وشاهدت الشمس القوية تلتهمه رويداً رويداً وتحنو عليه بحب كبير
ثم سلمته للنوم
التهمته على هذا النحو شيئاً فشيئاً ، وراحت تذيبه قليلاً فى ضوئها
على هذا النحو من حين لآخر ،
مثل أم تضع طفلها على صدرها مرة أخرى برقة شديدة .
مررت هناك وشاهدت المنظر . ولكنى من حين لآخر لم أك أرى
سوى أوهن البقايا . فلم يك ثمة إلا أضأل زخرفة للوجود .
ماذا بقى حين صار العجوز المحبوب ، العجوز الحبيب ، ضوءاً
ثم غيبته شيئاً فشيئاً آخر أشعة للشمس ؟
مثل كثير مما فى الدنيا من أشياء أخرى خفية !

الحقيقة :

قلبى لا تكظمه الجدران ، ولكن تكظمه الظلال ،
فما هاتيك البسمات فى هذى الظلال ؟
أىّ وحدة ترفع فى وجه الليل عذابها الذى لا يعرف القمر
ولا صيحاتها العالية ؟
من ذا الذى يغنى خفية بين أوراق الشجر ؟

الطيور؟ لا يحتمل . ولكنه ذكرى الطيور . فهل أنت إلا صدى .
صدى لا غير ، ريش أشعث . نغاية حزينة ،
شيء بليد ميت هنا في يدي ؟
إن تقبيل الرماد ليس يشبه تقبيل الحب .
وقضم غصن جاف يختلف أيما اختلاف
ووضعُ هذه الشفاه الصقيلة
على صدرٍ قد يضيف تضخمه الكسول
ألقاً إلى هذا العاج المتألق .
إنه الشمس ، الشمس المتألقة !

* * *

لقد نحّى الثوب جانباً – صار أثراً من آثار المدينة
يحدث حفيفاً ولا يرجى منه نفع .
إن الجسد يستلقي متقداً ، عارياً ، متدفقاً
كنافورة تشعر عندها بالحياة المتوهجة
في وسط الأغصان ، تحترق في الغابات الاستوائية ،
ملقاة من فوق خط استواء .

* * *

اجرع ، اجرع عاطفة ظهيرة عنيدة
تلقى بأنوارها حتى تبلغ الذروة وتلهبك إلى درجة الدوار
بل تذيبك . أيها الموت الحي الجميل ،
ياجمرات النهار ! يأيتها الغابة العذراء ،
يا من تُنْهَى حياتك في اللهب !

* * *

(المصادر)

1 — Hardie St. Martin, Ed. Roots And Wings. Harper & Row. N.Y., 1976.
2 — Willis Barnstone, Ed. Modern European Poetry. A Bantam Book, N.Y., 1970.